

مميزات فن الخطابة في مقامات بديع الزمان الهمذاني

د. محمد أويس

رئيس القسم العربي، الكلية الإسلامية الحكومية، لاهور كينت

Abstract

Maqama (المقامة) is a unique genre of Arabic Literature which is also called "rhymed prose" written in a highly accomplished style. Famous writer of Fourth Islamic Century Badi uz Zaman Hamadhani is known for introducing Maqama in Arabic Literature. Many Arab writers followed him and wrote everlasting Maqamas.

Badi uz Zaman Hamadhani occupies a unique place in Arabic Literature as a pioneer of Maqama. A careful study reveals the presence of high level of oratory speeches in his Maqamas. Oration is a mixture of teaching, persuasion, and entertainment in Hamadhani's Maqamat. The characteristics of oration in Badi uz Zaman's Maqamat have been discussed in this article.

Key Words: Maqama, Badi uz Zaman Hamadhani, characteristics, Oration.

بديع الزمان الهمذاني - رائد فن المقامة - اسمه "أحمد بن الحسين" وكنيته "أبو الفضل" ولقبه "بديع الزمان" وشهرته "مبدع فن المقامة". ولد في "همذان"⁽¹⁾ سنة 358هـ الموافق سنة 967م وانتسب إلى ذلك البلد واشتهر به.⁽²⁾ وهو أديب وشاعر من العصر العباسي، من أسرة عربية كانت ذا مكانة رفيعة في النشاط العلمي والأدبي، استوطنت مدينة "همذان" وبها وُلد هذا الأديب العظيم ونسب إليها،

وكان يفتخر بأصله العربي. وقد استضاء بديع الزمان الهمداني بأصله العربي ومولده الفارسي من الثقافتين-الفارسية والعربية-، وبرع ونبغ في آدابهما، فكان عالماً لغوياً وأديباً وشاعراً وناقداً معاً، حتى عدّه أهل النقد من أئمة النثر الفني العربي.

وما إن بلغ الهمداني من عمره أربعين عاماً، حتى باعته المنية سنة 398هـ⁽³⁾، وقيل: "إنه مات مسموماً أو بسكتة قلبية، ودُفن حياً، فأفاق في قبره وسمع الناس صوته في الليل، ولما نبشوا قبره وجدوه قابضاً على لحيته من هول القبر"⁽⁴⁾.

ومن التراث العلمي للأديب بديع الزمان الهمداني: مجموعة الرسائل، وديوان شعر، ومقاماته الشهيرة التي عرفت بمقامات بديع الزمان الهمداني، والتي ذاع صيتها في الآفاق، وما من منشغل بالأدب والشعر إلا وشغف بقراءتها والاكْتساب منها، وما زالت هذه المقامات مناراً يهتدي به من يريد التأليف في فن المقامة، فيستمتع الناس بالمواعظ الحكيمة، والقصص الطريفة، والأوصاف النادرة، والفكاهات البارة، والسرديات الساخرة، ويزدو طلاب الأدب عامةً وطلاب الأدب العربي خاصةً بما يحتاجون إليه من نفيس الكلم في نطاق تحسين الكلام، وتنويع الأسلوب، وبما يشتاؤون إليه من براعة التعبير، وغرابة اللفظ، وسمو المعنى.

ومع كونه أديباً رقيقاً كان بديع الزمان الهمداني شاعراً بارعاً ذا أسلوب مميز وله ديوان شعر حققه يسري عبد الغني، طبعته دار الكتب العلمية مرات، وكانت الطبعة الثالثة له سنة 2003م/1424هـ. وكذلك نقلت عن الهمداني مجموعة من الرسائل المنشورة، وكانت طبعة هذه الرسائل لأول مرة من مطبعة الجوائب بالأستانة العلية سنة 1298هـ. وكذلك طبعت من مصر سنة 1315هـ.

من الموضوعات التي اهتم بها كُتّاب المقامات أكثر من غيرهم هي: الخطابة والوعظ، وعدّها الباحثون من خصائص فن المقامة ومرتكزاته، فنحن نجد

بالطبع الخطب والمواعظ في مقامات الهمذاني بميزات عديدة ومهارات مميزة. أما خصائص فن الوعظ والخطابة وميزاتها عند بديع الزمان الهمذاني تترشح في الأمور التالية:

1. الرمزية
2. القصّ
3. الواقعية
4. الاقتباس
5. الاستلهام من النصوص الدينية

الرمزية:

الرمز عند النقاد علامة تدل على شيء له وجود قائم بذاته. ويقول الكيلاني: "إن الرمزية هي اتجاه غيبي خاص بطريقة إدراك العالم الخارجي، وبالوجود الذهني الذي ينحصر فيه الوجود الفعلي، واتجاه باطني وهو السعي إلى اكتشاف العقل الباطن وعالم اللاوعي، واتجاه لغوي خاص بالبحث في وظيفة اللغة وإمكاناتها ومدى تقيدها لعمل الحواس وتبادل تلك الحواس."⁽⁵⁾ ونلاحظ أن الرمز لم يتخذ معنى اصطلاحياً إلا منذ العصر العباسي: "عصر التحول الظاهري في الحياة العربية الاجتماعية والعقلية، وعصر النهضة العلمية الأدبية، وقد جنحت الحياة في العصر إلى صور من التعقيد، وتعرضت الألوان من الكبت والضغط."⁽⁶⁾

"لما كان تردي الأحوال الاقتصادية سبباً في كثرة المستجدين ولا سيما في بلاد فارس، ذلك بأن النزعة الكسروية الطاغية القديمة ظلت مسيطرة إلى حد كبير على مشاعر عليّة القوم هناك، والفوارق الاجتماعية كانت أكبر ظهوراً وتمكناً في هذه البيئة منها في أي بيئة أخرى من بيئات العالم الإسلامي، ولا سيما بعد أن حكم البويهيون في بلاد فارس. فقد أوحى هذه الحالة إلى بديع الزمان

الهمداني بذلك اللون من القصص المعروف بالمقامات⁽⁷⁾ وهي كما نعرف تدور حول الكدية والاستجداء غالبًا، وقد تبعه الحريري في ذلك الفن.

ويظهر أن بديع الزمان قد جعل بطله أبا الفتح الإسكندري "رمزًا للرجل العالم الفاضل الذي تقسو عليه ظروف الحياة فتضطره إلى الانحدار في هذه الكدية اضطرارًا"⁽⁸⁾، ولا بد من الإشارة إلى أن الرمزية التي نتكلم عنها هي الرمزية التي تقوم على الكناية، لا الرمزية التي تبحث في المصطلحات الغربية.

فمن تلك الرمزية عند الهمداني نجد رمزًا إلى الدينار دون أن يصرح به كما في "المقامة البلخية" يذكره على لسان بطله أبي الفتح الإسكندري ويطلبه من الراوية عيسى بن هشام ويصفه قائلاً: "إِذَا أَرَجَعَكَ اللَّهُ سَالِمًا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ، فَاسْتَصْحَبْ لِي عَدُوًّا فِي بُرْدَةِ صَدِيقٍ، مِنْ نِجَارِ الصُّفْرِ، يَدْعُو إِلَى الكُفْرِ، وَيَرْتُقِصُ عَلَى الظُّفْرِ، كَدَارَةَ العَيْنِ، يَحْطُ ثِقَلِ الدَّيْنِ، وَيُنَافِقُ بَوَجْهِينَ"⁽⁹⁾

فوصفه للدينار بأنه عدو في لباس صديق، ظاهره يخدع ويأخذ باللب، فإذا اغتر به المرء قلب له ظهر المجن، أما قوله: "يَدْعُو إِلَى الكُفْرِ" لأنه من يتعامل بالدينار في غير الوجوه المشروعة ربما ينحدر إلى الكفر. وقوله: "وَيَرْتُقِصُ عَلَى الظُّفْرِ" لأنه من عادة النقاد من الصيارفة أن يجعلوا الدينار فوق أظفر إبهامهم ويضربون بتأن لينكشف لهم حاله، وهو مستدير كدارة العين، وينافق بوجهين، لأن على كل جانب من وجهه توجد الرسوم والنقوش، فهو يشبه "المنافق الذي يلقاك بوجه ويلقى عدوك بوجه" فيشير الهمداني إلى صنف من الناس قد ذكروهم رسول الله ﷺ بأنهم شر الناس، عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: "شر الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"⁽¹⁰⁾ إذن فقد وعظ البديع عن طريق الرمز، فقوله: "ينافق بوجهين" رمز إلى ما يفعله المال بالناس. وجدير بالذكر أن الحريري اتبع الهمداني في هذا التمثيل للدينار وكتب مقامة دينارية وصف فيها أحوال الدينار.

ويرمز الهمداني إلى شدة فقره، واضمحلال حاله بقوله على لسان

الراوي:

"آوي إلى بيت كقيد شبرٍ حَامِلٍ قَدْرٍ وَصَغِيرٍ قَدْرٍ" (11)

المعنى أنني أسكن داراً صغيرة لا تكفيني، ويضاف إلى أنني غير مشهور،

ولا شهرة لي ولا اسم، وهذه آيتي التي أطبخ فيها طعامي صغيرة.

وقال يصف بعجوة خبير: "كَأَنَّ نَوَاهَا أَلْسُنُ الطَّيْرِ" (12) يعني الهمداني

نواة التمر باللسن الطير في الصغر، لأنه إذا كانت الثمرة كبيرة، ونواتها صغيرة كان

أكثرها نفعاً، فالعبارة رمز عن ذلك، وليس عظمها، ولا ضخامتها ناجماً عن كبر

النواة، بل إن معظمها وأكبر ما فيها جسم يؤكل.

وقوله: "أَضَلَلْتُ إِبِلًا لِي، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهَا، فَحَلَلْتُ بِوَادٍ

خَضِرٍ" (13) فحين وصف الوادي بقوله: "خضر" فكناية عن كثرة نباته،

واعشيشاب أرضه.

وقوله: "حَتَّى أَرَدَفَ اللَّيْلُ أَدْنَابَهُ" (14) رمز عن اشتداد الظلمة، واحتباك

الغسق.

وقوله: "كُنْتُ وَأَنَا فَحِي السِّنِّ أَشَدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَائِيَّةٍ، وَأَرْكُضُ طِرْفِي إِلَى

كُلِّ غَوَائِيَّةٍ" (15) أراد الملاذ المردية والشهوات المهلكة، وشد الرحل إليها كناية عن

اقترافها والخوض في مضمارها.

وقوله: "وَبُئِدْتُ خَلْفَهُ الحُصَيَّاتُ، وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ العَرَصَاتُ" (16)، يريد أن

من عادتهم أنه إذا نزل بهم من ضيف لا يرضون به ولا يريدون عودته، يرمون

الحصى خلفه بعد ارتحاله مستخفين به، وكأنهم يريدون "عدم عودته كما لا تعود

الحصاة" وكذلك إذا مات أحد كنسوا بعده فناء الدار إياساً من رجعته وتنظيفاً

للكار من بعده، وكني بهما عن أنه لا يؤوب.

القصُّ

القصّ هو نوع من أنواع النثر العربي أولاً والشعر ثانياً، وقد تضمن -فيما يبدو- الأسلوب السردي، وهو أسلوب "التناقل الشفهي" بين الراوي أو السارد والمتلقي وذلك لقلة أو انعدام ظاهرة التدوين إلا ماندر، ولا غرابة أن الملاحم الروائية والقصص البطولية -الواقعية منها والخيالية- كانت تنتقل من شخص إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى عن طريق السماع ثم الإصغاء ثم الحفظ. ولا يختلف فيه اثنان أن القصص أكثر تأثيراً في قلب المتلقي والسماع من الأساليب الخطابية الأخرى. فنجد في مقامات بديع الزمان بأنه جاء بالقصص والروايات في بيان موضوعاته ومواعظه.

وعوّّل بديع الزمان الهمداني قصصه على الواقع التاريخي كما في المقامة الصيمرية؛ فيقول: "حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الْعَبَّاسِ الصَّيْمَرِيِّ⁽¹⁷⁾: إِنَّ يَمَّا نَزَلَ بِي مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ اصْطَفَيْتُهُمْ وَأَنْتَحَبُّهُمْ وَأَدَّخَرْتُهُمْ لِلشَّدَائِدِ مَا فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وَأَدَبٌ لِمَنْ اِعْتَبَرَ وَأَتَّعَطَّ وَتَأَدَّبَ"⁽¹⁸⁾ وعليه فقد ساق القصة للعظة والعبرة وفحوى القصة أن الصيمري هذا أقبل إلى مدينة السلام ومعه المال الوفير، واتخذ لنفسه أصحاباً من أشراف القوم ينادمونهم ويأكلون عنده ويشاربونهم إلى أن نفذ ماله، وتفرقوا عنه فما وجد من هؤلاء الإخوان فتألم وأسف عليهم. ثم خرج يلتمس المال الذي جمعه بكل حيلة، فعادوا يعتذرون مما بدر منهم، فأوهمهم أنه صفح عنهم، وأعد لهم في اليوم التالي طعاماً وشراباً إلى أن سكروا، وأبلغ غلمانهم أن يبيتوا عنده، ثم أرسل إلى المزين وأطعمه وسقاه وأعطاه دينارين، فحلق في ساعة واحدة خمس عشرة لحية، فصاروا جرّداً مردّاً، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوب فيه النصيحة والفائدة التي قصدت منها القصة وهي: "مَنْ أَضْمَرَ بِصَدِيقِهِ الْعَدْرَ وَتَرَكَ الْوَفَاءَ، كَانَ هَذَا مُكَافَأَتَهُ وَالْجَزَاءَ"⁽¹⁹⁾ ثم جعل كل واحد منهم في صنان، وأرسل خلف الحمالين الذين استأجرهم غلامه فحملوهم إلى منازلهم، فلما أصبحوا رأوا

في أنفسهم همًّا عظيمًا حتى حبس كل واحد منهم نفسه في داره، خوف معرفة الناس لقصتهم.

وفي ختام المقامة أضاف الهمداني ووضح العظة، فقال: "وَأَيْمًا ذَكَرْتُ هَذَا وَهَتُّ عَلَيْهِ لِيُؤَخِّدَ الْحَدْرُ مِنْ أُنْبَاءِ الزَّمَنِ، وَتُتْرَكَ التَّقَةُ بِالْإِخْوَانِ الْأَنْدَالِ السَّقَلِ، وَبُقْلَانِ الْوَرَّاقِ النَّمَامِ الرَّزَّافِ الَّذِي يُنْكِرُ حَقَّ الْأُدْبَاءِ، وَيَسْتَحِفُّ بِهِمْ، وَيَسْتَعِيرُ كُتُبَهُمْ لَا يَرُدُّهَا عَلَيْهِمْ"⁽²⁰⁾

وإلى مثل ذلك عمد البديع حين ذكر قصة بشر بن عوانة العبدي، فقال: "كَانَ بَشْرُ بْنُ عَوَانَةَ الْعَبْدِيُّ صُعْلُوكًا، فَأَعَارَ عَلَى رُكْبٍ فِيهِمْ امْرَأَةً جَمِيلَةً، فَتَزَوَّجَ بِهَا، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ"⁽²¹⁾ ويستمر الحوار بينهما، لتُظهر له أن ابنة عمه فاطمة أجمل منها، فيخطبها من عمه، فيرفض، فتستمر الشهور والسنون، وبشر يفتك بمن يلقى من قومه؛ ليستجيب عمه لطلبه، فأراد أن يردعه عن فعله، لذا طلب منه مهرًا لها ألف ناقة من نوق خزاعة، وتلك الحيلة؛ لأن الطريق للوصول إلى تلك النوق فيه مخاطر تكمن في أسد وحية، فلما تغلب على الأسد أرسل بأبيات من الشعر لابنة عمه يفتخر بشجاعته، فندم العم على منعه تزويجها، وخشي أن تناله الحية، فذهب في أثره، ووجده مع الحية التي يغلب عليها فيعودان معًا، فيعرض سبيلهما فارس شجاعان مجهول، وتقع معركة بينهما ويتغلب فيها الفتى الفارس المجهول على بشر بن عوانة، ويتضح في آخر الأمر أن هذا الفارس لم يكن إلا ابنه من تلك المرأة التي أرشدته لجمال ابنة عمه، فيتنازل عن الزواج بها ويزوجها لابنه.⁽²²⁾

الواقعية:

إن مصطلح "الواقعية" من المصطلحات الفضفاضة التي تختلف مفاهيمها باختلاف ميادين النشاط الإنساني من جهة، وباختلاف اتجاهات النقاد والأدباء من جهة أخرى. إلا أن عباس محمود العقاد كان أقرب إلى الصواب في نظريته

للواقعية حين قال: "إن الواقعية لا تجرد البشرية من أحلامها، ولا تجرد الدنيا من محاسنها، فلا يعاب الأدب الذي يصور لنا الإنسان على حقيقته، والدنيا على حقيقتها، وما وراء ذلك فهو وراء الواقع في الحس وفي العقول"⁽²³⁾

ويقول عماد الدين خليل: "والفن الإسلامي فن منفتح على شتى المذاهب الفنية، مادامت منسجمة في اتجاهها وتفصيلها مع حركة الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين، وفي إطار الجمال المبدع، بعيداً عن التزييف والكذب والتناقض. إنه مرّن بحيث يتسع لكل المذاهب، ويزيد عليها في سعة نظره الكونية وعمقها وشمولها ... إنه واقعي حين يعلن ثورته الانقلاية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وعلى كل الطواغيت لا تقرها وحدانية الله، والتي يأبأها التحرر الوجداني للإنسان المسلم، ذلك التحرر الذي يبدأ من أعماقه لينتهي بالكون ... واقعي حين يصرخ في وجوه القوى المتسلطة التي تعذب الإنسان بالظلم الاجتماعي، وبالتناقض الطبقي بشتى مستوياته، ويخفق حرته والاستهانة بكرامته .. واقعي حين يعبر عن لحظات الضعف البشري أمام شتى المغريات"⁽²⁴⁾

"ولكنه لا يسلط عليها الأنوار باعتبارها لحظة الانتصار، ولكن باعتبارها لحظة الضعف"⁽²⁵⁾

راوي مقامات الهمداني يتنقل من بلد إلى آخر، وكذا البطل، يبين سبب هذا الانتقال أو السفر فمرة يطلب الحاجة كما في المقامة السجستانية حين قال: "حدا بي إلى سجستان أرب"⁽²⁶⁾ وأخرى بسبب حبه للسفر ليس إلا، كما في مقامته التي قال فيها: "كُنْتُ وَأَنَا فَتَى السِّنِّ أَشَدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ، وَأَرْكُضُ طَرْفِي إِلَى كُلِّ غَوَايَةٍ"⁽²⁷⁾ وفي أخرى يقول: "اتَّقَمْتُ لِي حَاجَةٌ بِحِمَصَ فَشَحَذْتُ إِلَيْهَا الْحِرْصَ"⁽²⁸⁾ وقد يشد الرحال هرباً كما في قوله: "لَمَّا نَطَّقَنِي الْعَيْ بِقَاضِلِ دَيْلِهِ، أَتَمَّمْتُ بِمَالِ سَلْبَتِهِ، أَوْ كَنَزِ أَصْبَتِهِ، فَحَفَزَنِي اللَّيْلُ، وَسَرَّتْ بِي الْحَيْلُ، وَسَلَكْتُ فِي هَرَبِي مَسَالِكَ لَمْ يَرْضُهَا السَّيْرُ،، وَبَلَعْتُ أَدْرِيحَانَ"⁽²⁹⁾

وقد يكون سبب سفر راوي الهمداني القيام بأداء نسك الحج، كما قال في إحدى مقاماته: "بَيْنَا أَنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، قَافِلًا مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ" (30) وقوله: "لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الْحَجِّ فِيمَنْ قَفَلَ" (31) وقوله: "لَمَّا أَرَدْتُ الْقُفُولَ مِنَ الْحَجِّ" (32)، وربما كان السفر للتجارة ويظهر ذلك في قوله: "لَمَّا قَفَلْنَا مِنْ تِجَارَةٍ إِرْمِينِيَّةٍ أَهَدْتْنَا الْفَلَاةَ إِلَى أَطْقَالِهَا" (33) وفي قوله: "لَمَّا جَهَزَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِيُّ وَكَدَهُ لِلتِّجَارَةِ أَفْعَدَهُ يُوصِيهِ" (34)

وقد يكون السفر لطلب العلم كما في قوله: "طِفْتُ الْأَفَاقَ، حَتَّى بَلَغْتُ الْعِرَاقَ، وَتَصَفَّحْتُ دَوَابِينَ الشُّعْرَاءِ" (35)

فالذي يسافر في سبيل حصول العلم أو الدين وللكفاية للاستعانة على الدين، فسفره في الله وله ثواب وأجر من الله، إن التزم الشروط المقررة له، من الإخلاص والتقوى والتورع، فإن لا يهتم بهذه الشروط فيصير من طلاب الدنيا الفانية لا الآخرة الباقية، وكانت هجرته إلى الدنيا لا إلى الله ورسوله ﷺ.

الاقْتِبَاسُ وَالتَّضْمِينُ:

بديع الزمان الهمداني من الأدباء الذين تحملوا في الاقتباس القرآني والنبوي، وقد أورد الاقتباس بسهولة ممتعة، وروعة أدبية ممتازة. ويبرز للباحث حين دراسة المقامات أن الهمداني جاء باقتباساته بدون أي تكلف أو تصنع، بل جرت الاقتباسات في كلامه ارتجالاً وبداهة.

المقامة الوعظية تحتوي على الوعظ البليغ حول فناء الدنيا وبقاء الآخرة، وهذه المقامة أكثر مقاماته حظاً من الاقتباس، إذ اقتبس فيها من القرآن الكريم مراراً، فقوله فيها: " أَيْهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تُشْرِكُوا سُدَى" (36) متضمن بقوله تعالى: ﴿الْإِنْسَانُ أَنْ يُشْرِكَ سُدَى﴾ (37)، وقوله: "فَاعْبُدُوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" (38) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (39) وقوله: "أَلَا وَإِنَّ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ عَلِيماً، يُجِي الْعِظَامَ رَمِيماً" (40) متضمن بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُجِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُجِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ⁽⁴¹⁾ وقوله: "الَّذِينَ جَحَدُوا بِالدِّينِ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ"⁽⁴²⁾ مقتبس من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾⁽⁴³⁾ وقوله: "وَإِنَّكُمْ لَمُتَّخِفُوا عَبَثًا"⁽⁴⁴⁾ متضمن بقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾⁽⁴⁵⁾ وقوله: " وَكَيْفَ يَلِدُ الْعَيْشَ مَنْ هُوَ مُوقِنٌ - بِمَوْقِفِ عَدَلٍ حَيْثُ تُبْلَى السَّرَائِرُ "⁽⁴⁶⁾ متضمن بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾⁽⁴⁷⁾

اقتبس الهمداني من الحديث النبوي في مقاماته وتضمن به في عباراته، ففي قوله: "وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللَّهُ أَمَالَكَ، وَجَعَلَ الْيَدَ الْعُلْيَا لَكَ"⁽⁴⁸⁾، اقتباس بالحديث النبوي الشريف الذي رواه حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى".⁽⁴⁹⁾ وهو كذلك تضمن بهذا الحديث في المقامة الصفرية بقوله: "المَجْدُ يُخَدَعُ بِالْيَدِ السُّفْلَى - وَيَدُ الْكَرِيمِ وَرَأْيُهُ أَعْلَى"⁽⁵⁰⁾

وقوله في المقامة الوعظية: "أَلَا لَأَعْذَرَ فَقَدْ بَيَّنَّتْ لَكُمْ الْمِحْجَةَ، وَأَخَذَتْ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ"⁽⁵¹⁾ يشير إلى حديث العرياض بن سارية الذي يقول فيه: "وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودِعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ قَدْ تَرَكْتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ"⁽⁵²⁾

استلهام المعاني من النصوص الدينية:

استكثر الهمداني - وكتاب المقامات بعده عامة - في استيراد المفاهيم الدينية في مقاماتهم. امتصوا منها العقائد والعبادات والأخلاق وزينوا بها مقاماتهم، ويشير هذا الاستلهام إلى صلتهم بالدين ومرافقة شعورهم بالتعاليم الدينية. إنه من المؤكد بأن الأديب أو الشاعر لا بد له أن يستفيد كلامه من كلام من قبله، وهذا الاستلهام ضروري للكاتب لتقديم فكرته وهذا أمر فطري لاغنى عنه، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: "لولا أن الكلام يعاد لنفد."⁽⁵³⁾ فهو من التزامات تقدم الحضارات الإنسانية وازدهارها.

وتظهر من مقامات الهمداني عقيدته السامية وإيمانه العميق بتوحيد الله سبحانه وصفاته. ويعتقد الهمداني بأن الله هو الفاعل الحقيقي، والمقدر الكامل ويشيب عباده خير ثواب. وقد تكرر من الهمداني الحلف بالله والضرعة إليه والتوسل به والالتفات إليه في مقاماته. وسيجد المتفحص في مقاماته الإقرار بربوبية الله وذكر صفاته، وأسمائه، وتسبيحه، وحمده، وتنزيهه، وتبجيله. إذ ذكر في المقامة الأذربيجانية دعاءً فصيحاً وجامعاً لصفات الله تعالى عزوجل وقال على لسان البطل: "اللَّهُمَّ يَا مُبْدِيَ الْأَشْيَاءِ وَمُعِيدَهَا، وَمُخَيِّي الْعِظَامِ وَمُبِيدَهَا، وَخَالِقَ الْمِصْبَاحِ وَمُدِيرَهُ، وَفَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَمُنِيرَهُ، وَمُوصِلَ الْأَلَاءِ سَابِعَةَ إِلَيْنَا، وَمُمْسِكَ السَّمَاءِ أَنْ تَفْعَ عَلَيْنَا، وَبَارِي النَّسَمِ أَزْوَاجاً وَجَاعِلَ الشَّمْسِ سِرَاجاً، وَالسَّمَاءِ سَفْناً وَالْأَرْضِ فِرَاشاً، وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكناً وَالنَّهَارِ مَعَاشاً، وَمُنْشِئَ السَّحَابِ ثِقَالاً، وَمُرْسِلَ الصَّوَاعِقِ نِكَالاً، وَعَالِمَ مَا فَوْقَ النُّجُومِ وَمَا تَحْتَ التُّحُومِ" (54)

صيورة الحياة الدنيوية إلى الفناء وتؤكد إتيان الموت وما بعده من الأحوال موضوع تكرر ذكره في المقامات العربية؛ لأن هذا العنصر عنصر واجبي في تشكيل المقامة، فالموت والهلاك من الموضوعات التي أكثر فيها كتاب المقامات. وخذ بديع الزمان الهمداني كلاً من الحياة والموت في مقاماته، وأجمع ما ورد في هذا المجال قوله على لسان البطل في المقامة الوعظية: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَمْ تُتْرَكُوا سُدَى، وَإِنَّ مَعَ الْيَوْمِ غَداً، وَإِنَّكُمْ وَارِدُو هَوَّةٍ، فَأَعِدُوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَإِنَّ بَعْدَ الْمَعَاشِ مَعَاداً، فَأَعِدُوا لَهُ زَاداً، أَلَا لَا عُذْرَ فَقَدْ بَيَّنَّتْ لَكُمْ الْمِحْجَةَ، وَأَخَذَتْ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ، مِنَ السَّمَاءِ بِالْخَبَرِ، وَمِنَ الْأَرْضِ بِالْعَبْرِ، أَلَا وَإِنَّ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ عَلِيماً، يُخَيِّ الْعِظَامَ رَمِيماً، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ جَهَازٍ، وَقَنْطَرَةٌ جَوَازٍ، مَنْ عَبَّرَهَا سَلِمَ، وَمَنْ عَمَّرَهَا نَدِمَ، أَلَا وَقَدْ نَصَبْتَ لَكُمْ الْفَحَّ وَنَثَرْتَ لَكُمْ الْحَبَّ؛ فَمَنْ يَرْتَعُ، يَقَعُ، وَمَنْ يَلْفُطُ، يَسْقُطُ، أَلَا وَإِنَّ الْفَقْرَ حَلِيَّةٌ نَبِيَّكُمْ فَاكْتَسُوهَا، وَالغِنَى حُلَّةٌ الطُّغْيَانِ فَلَا تَلْبَسُوهَا..." (55)

أما في المقامة الوعظية فقد ذكر بعض ما يصيب الإنسان بعد موته، وأولها الوضع في حفرة القبر فقال: " إِنَّ بَعْدَ الْحَدَثِ جَدَثًا"⁽⁵⁶⁾ وبين كيف أنهم بعد أن كانوا فوق الأرض أصبحوا في بطنها، وكيف أنهم كانوا يعيشون في دور واسعة وأصبحوا في حفر تضمهم تحت التراب. وذكر في هذه المقامة الوحشة التي ستنتابهم في القبر، كما أشار إلى البعث بعد الموت فقال: "كَأَنَّ نَرَى أَنْ لَا نُشُورَ، وَأَنْتَأَسُدِّي، مَا لَنَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مَصَائِرُ!"⁽⁵⁷⁾

فأراد أن هذا الذي يطمع في الدنيا ويحرص عليها، ويعتقد أنه في هذه الحياة بلاراع يكفيه، وأنه لن يصير إليه فيحاسبه، فهذا هو الذي لعله لا يدين بالبعث ولا يؤمن به.

ثم يتعجب ممن يخشى الموت فيقول: " أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّنْ يَنَامُ وَهُوَ يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلَا يَرْجُو الْقَوْتَ."⁽⁵⁸⁾

الأدب مربوط بالأخلاق، فإن وظيفة الأدب الأولية -كائن ويليق به أن يكون- هو تعليم النفوس وتهذيبها وتربيتها، لأن بدونها لا يكون الأدب ذا قيمة وأهمية، فهو سواها لا يكون إلا كلمات أو جمل مرسومة كالجسد بدون الروح. وهذا هو الحقيقة التي أدركها بديع الزمان الهمذاني، فمقاماته تشتمل على الأخلاق الإسلامية، فهي مع اشتماله على المحسنات اللفظية والعجائب المدهشة البديعية، والتكلفات الصناعية لا تخلو عن التذكير والإصلاح والدعوة إلى الأخلاق الحسنة المحمودة.

ففن الوعظ والخطابة عند الهمذاني يحتوي على الخصائص المتنوعة، وتلك العناصر تجعل أدب الهمذاني مؤثرة للمتلقين ومهمة للباحثين. والخصائص المذكورة في هذا المقال من العناصر الأساسية للوعظ والنصح والتعليم. وقد أجمع علماء النفس على أن هذه الأمور لا بد أن يستحضر كل من يريد التأثير في قلوب السامعين وكل من يهدف التربية للمتلقين، فالهمذاني نجح في هذا المجال نجاحًا

شاملاً حتى هذا الآخرون حذوه واتبعوا أسلوبه في الأدب المقامي وغيره من الآداب.

وإذا ما بحثنا هذه الميزات الوعظية والخصائص الخطابية في مقامات الهمداني يبدو لنا أنه استفاد هذا الأسلوب من الأدب الديني ومن النصوص الإسلامية الأساسية من القرآن والسنة، فإن القرآن والسنة من أحسن ما ورد ووُجد عن الوعظ والنصح والإرشاد في التاريخ الإنساني، لأنهما يمثلان كل عناصر التأثير والتعليم والتربية، فلذلك لهما تأثير عميق دقيق واضح في قلوب الناس في أنحاء العالم، وفي كل قرن من القرون. فإن المصدرين مثل السراج المضيئ أضاء العالم بضوءهما ونوره بنورهما.

الحواشي والهوامش

- 1 - "همذان مدينة مشهورة من مدن الجبال. القزويني، زكريا بن مُجَد: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: دار صادر. ج 1 ص 197
- 2 - ضيف، شوقي: المقامة، القاهرة: دار المعارف، 1954م. ص 13
- 3 - ضيف، شوقي: المقامة، ص 15
- 4 - مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع، ج 2 ص 395
- 5 - نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1401هـ-1981م. ص 113-114
- 6 - درويش الجندي: الرمز والرمزية في الأدب العربي، القاهرة: دار نخضة مصر للطباعة والنشر. ص 43
- 7 - المصدر نفسه، ص 316، عن: محمود غناوي الزهيري: الأدب في ظل بني بويه، مصر: مطبعة الأمانة، 1949م. ص 215.
- 8 - المصدر نفسه، ص 317، عن: محمود غناوي الزهيري: الأدب في ظل بني بويه، ص 234
- 9 - الهمداني، بديع الزمان، أحمد بن الحسين، أبو الفضل: مقامات بديع الزمان الهمداني، تحقيق الشيخ مُجَد عبده، بيروت: دار الكتب العلمية، ط 2، 1426هـ-2005م. ص 19
- 10 - البخاري: صحيح البخاري، رقم الحديث: 7179، ج 9 ص 71
- 11 - الهمداني: المقامات، ص 94
- 12 - المصدر نفسه، ص 203
- 13 - المصدر نفسه، ص 208
- 14 - المصدر نفسه، ص 213
- 15 - المصدر نفسه، ص 29
- 16 - المصدر نفسه، ص 32
- 17 - "أبو العنيس الصيميري (م: 275هـ): مُجَد بن إسحاق بن إبراهيم ابن أبي العنيس بن المغيرة بن ماهان، كان شاعرًا أدبيًا مطبوعًا، ذا ترهات، وله تصانيف هزلية نحو الثلاثين، وكان نديما للمتوكل" انظر: معجم الأدباء، للحموي، ج 5 ص 406-407
- 18 - الهمداني: المقامات، ص 236
- 19 - المصدر نفسه، ص 243

- 20 - المصدر نفسه ، ص 245
- 21 - المصدر نفسه، ص 280
- 22 - المصدر نفسه، ص 280-289
- 23 - عباس محمود العقاد: دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، الفجالة: مطبعة دار العالم العربي. ص 31
- 24 - عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1401هـ-1981م. ص 40-41
- 25 - محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، بيروت: دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م. ص 66-93
- 26 - الهمذاني: المقامات، ص 22
- 27 - المصدر نفسه، ص 29
- 28 - المصدر نفسه، ص 36
- 29 - المصدر نفسه، ص 52
- 30 - المصدر نفسه، ص 113
- 31 - المصدر نفسه، ص 197
- 32 - المصدر نفسه، ص 261
- 33 - المصدر نفسه، ص 213
- 34 - المصدر نفسه، ص 233
- 35 - المصدر نفسه، ص 164
- 36 - المصدر نفسه، ص 151
- 37 - سورة القيامة، الآية 36
- 38 - الهمذاني: المقامات، ص 151
- 39 - سورة الأنفال، الآية 60
- 40 - الهمذاني: المقامات، ص 152
- 41 - سورة يس، الآية 78-79
- 42 - الهمذاني: المقامات، ص 152
- 43 - سورة الحجر، الآية 91

- 44 - الهمذاني: المقامات، ص 152
- 45 - سورة المؤمنون، الآية 115
- 46 - الهمذاني: المقامات، ص 156
- 47 - سورة الطارق، الآية 9
- 48 - الهمذاني: المقامات، ص 33
- 49 - البخاري، مُجَدِّد بن إسماعيل: صحيح البخاري، رقم الحديث: 1427، ج 2 ص 112
- 50 - الهمذاني: المقامات، ص 262
- 51 - المصدر نفسه، ص 151
- 52 - ابن ماجه القزويني: سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم الحديث: 43
- 53 - القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 1 ص 91
- 54 - الهمذاني: المقامات، ص 54-55
- 55 - المصدر نفسه، ص 151-152
- 56 - المصدر نفسه، ص 152
- 57 - المصدر نفسه، ص 156
- 58 - المصدر نفسه، ص 155-156